المقياس: علم المعاجم/ ماستر1/ الأفواج: 10،9،8،7،6/ د. بن صافية

الدرس الثاني: نشأة التأليف المعجمي عند العرب

لم يكن العرب أول من ألف المعاجم؛ فلقد سبقهم إلى ذلك الآشوريون، الصينيون، اليونانيون...إلخ. بناءً على هذا سنقف عند:

أولا: لمحة عن التأليف المعجمي قبل العرب

1- المعاجم البابلية والآشورية: ألفوا في كثير من فروع العلم والمعرفة، وقد قاموا بعمل القواميس الأولى لشرح الرموز التي كان يكتب بها. ولقد اهتم الآشوريون بلغتهم الآكادية ومفرداتها وقواعدها، وحاولوا أن يضعوا قوائم من الرموز السومرية المصورة ومرادفاتها بما يوضّح قيّمها الصوتية ومدلولاتها بالآكادية، وكانوا يرتبون المفردات اللّغوية حسب موضوعاتها التي ترتبط بها. كما نظموا الكتابة المقطعية لتفسير رموز الكتابات المصورة وهذه التفسيرات مسجلة على أسطوانات رأسية في ألواح خزفية في المكتبة العظيمة للآشوريين في بلدة نينيقيا، وهي المصدر الرئيسي لمعرفتنا بثقافة ما بين النهرين، ولقد استعمل الصينيون واليابانيون التفسيرات الخاصة بلغة الآشوريين.

2- المعاجم الصينية: ألفوا معاجمًا كثيرة بعضها مرتب حسب المعنى، وبعضها مرتب حسب الصورة أي الرمز الكتابي للكلمة، وبعد قرون طويلة عرف الصينيون ترتيب المعاجم حسب اللّفظ أي الترتيب الصوتي. وأول معجم معجم وصل إلينا معجم "يوبيان" لمؤلفه "كوي وانج" ثم معجم "شووان" ل"هوشن"، ومعجم "أرهيا" رتب المفردات حسب موضوعاتها. إنّ السّمة الغالبة في ترتيب المعاجم الصينية هي الترتيب الصوري؛ فالمعجم الصيني كان يجمع الصور المتشابهة تحت باب واحد ثم يبيّن نطقها ومعناها.

3- المعاجم الهندية: ألف الهنود كثيرا من المعاجم التي تشرح ألفاظ نصوصهم الدينية وأشعارهم. وأقدم معجم هندي هو معجم "الأماراكاكا" الذي يرجع إلى القرن الخامس ميلادي؛ رتبت ألفاظه حسب معانيها، وبعد ذلك أخذ الهنود يؤلفون معاجم مرتبة حسب المعنى ثم ألفوا معاجم مرتبة حسب الموضوعات، وبعضها حسب شكل الكلمة؛ حتى القرن العاشر استقرّ الهنود على المعاجم المرتبة حسب الترتيب الأبجدي.

4- المعاجم اليونانية: عرف اليونان حركة نشيطة في تأليف المعاجم فقد أكمل "أرسطوفاس البيزنطي" قائمة الكلمات اليونانية الغريبة والصعبة ثم نشرها وحدّد معانيها، وكتب "بامقليوس السكندري" قاموسًا في 25 كتاب، كما ألف "إليوس دينسيوس" قاموسًا للكلمات اللاتينية في 10 كتب، وألف "فاليويوس فيلكس" قاموسًا سماه "في معاني الألفاظ" مازال موجزه باقيًا حتى الآن. وصنف "أريون الطيبي" قاموسًا في اشتقاق الكلمات. أمّا أعظم القواميس اليونانية اتساعًا في القديم ألفه "هسكيوس السكندري"؛ يتضمن أسماء المراجع لكل تقرير مكتوب، كما أحرز اليونانيون القدماء

قواميس لأواني الطبخ والشرب، الكلمات الغامضة والمترادفات وكلمات اللّهجات، إضافة إلى وجود قواميس للأشعار العاطفية والهزلية، قواميس لأبوقراط الطبيب وأفلاطون الفيلسوف وفلاسفة آخرين.

ثانيًا: نشأة المعاجم العربية

لم تعرف اللّغة العربية التصنيف إلاّ عندما بدأ العرب بوضع نتاجهم الفكري والعلمي في أواخر القرن 7م؛ فنشطت المؤلفات التي تتناول فروع المعرفة وبدأ عصر التدوين لاسيما أنّ العرب عرفوا اختلاطًا كبيرا بين الفتح وامتداد رقعة الدولة العربية الإسلامية، وبسبب هذا الاختلاط فشا اللّحن وشاع فساد الألسن فراح العرب يصنفون القواعد اللّغوية ونقط القرآن الكريم. ويعتبر أبو الأسود الدؤلي أول من شكل المصحف ووضع الأساس لضبطه حتى يُفهم النحو على المعنى الدقيق، ويجتنب أيّ لحن في قراءة المصحف الشريف.

بدأ التفكير في تأليف المعجم العربي عندما واجه أصحاب الرسول(ص) مشكلة فهم القرآن الكريم؛ حيث كان الرسول (ص) هو المرجع الأول في تفسير ما غمض عليهم من القرآن الكريم ثم بعد وفاته واجه الصحابة مشكلة تفسير الغريب من القرآن خاصة الألفاظ التي لا يعرفون معانيها فيسألون عنها؛ فطليعة المعجم العربي جاءت مع الإسلام وأول من حمل رايتها عبد الله بن عبّاس؛ فقد كان يؤدي ما تؤديه المعاجم للسائلين، فهو قد وقف على لغات العرب وأسرارها ودلالات مفرداتها، ومعرفة غريبها ونوادرها وأشعار العرب وخطبهم وأمثالهم، وأعانه علمه الواسع بالعربية أن يفسّر لسائليه كلمات اللّغة تفسيرًا لغويًا وثيقًا؛ فيعدّ ابن عبّاس أول من وضع نواة المعجم العربي.

من أهم الأسباب التي مهّدت لنشأة المعجم العربي نذكر:

- **سبب ديني**: دراسة القرآن الكريم خوفا من الوقوع في خطأ النطق أو الفهم؛ وفهم القرآن لا يتأتى إلا بتفسير كلماته، ولقد ورد فيه الكثير من الغريب والنوادر والكثير من الألفاظ التي استغلق فهم معانيها على الفصحاء من العرب، فلذلك كانوا يستعينون بكلام العرب وبالشّعر لبيان معاني القرآن
- **سبب اجتماعي**: إنّ الحياة البدوية للعرب كانت قد بدأت تزحف على الحواضر ما يعني أنّ المعين الذي كان يستقي منه الرواة أوشك على النضوب والزوال.
- **الخوف على اللّغة** من الانقراض بانقراض الحافظين لها، كما أنّ كتابة المصحف كانت بسبب استمرار القتل في الصحابة حفظة القرآن والخشية من أن يضيع شيئا منه، وكذلك دونت اللّغة بواسطة المعاجم والكتب اللّغوية خشية من أن يضيع بعض موادها، أو يدخلها غريب تنبو عنه أصولها وقواعدها.

- بواكير المعاجم العربية

كان العرب في صدر الإسلام بحاجة إلى من يفسّر لهم بعض كلمات القرآن الكريم وكلمات حديث الرسول(ص). انطلاقا من هنا بدأ أصحاب العلم يتسابقون إلى التفسير فظهر ما يعرف بغريب القرآن، وما يعرف بغريب الحديث؛ حيث اهتم العرب بلغتهم فبدؤوا بجمع ألفاظها في مصنفات حملت اسم "الغريب" أطلق على الألفاظ اللّغوية الموضوعة للشرح كالقرآن والحديث

النبوي الشريف. ومحتويات مؤلفات "الغريب" ليست من الغريب النافر بل ممّا عرفه العرب واستعملوه، يشترك في معرفته أهل اللّسان العربي وهو ما يدور في الخطاب تناقلوه فيما بينهم وتداولوه، وتلقفوه منذ الصغر لضرورة التفاهم والتواصل.

نشأت صناعة المعجم العربي في بدايتها على شكل رسائل لغوية تجمع فيها اللغة؛ حيث جمع العرب- في المرحلة الأولى- الكلمات من غير أن يتبعوا طريقة محدّدة، فقد كان الأصمعي مثلا يقصد الأعراب فيسمع منهم اللّفظ الغريب ويدونه في ألواحه إلى أن اشتهر اسمه بالغريب. وكان الذين نقلت عنهم اللّغة واقتدى بهم وأخذ اللّسان العربي عنهم من بين القبائل العرب، وقد رأى العرب أنّ الكلمة تنطق بها مجموعة قبائل خير من الكلمة التي تتعلق بها قبيلة واحدة، وأنّها إذا وردت على القياسين الصرفي والنحوي كانت أفصح من غيرها وأفضل، وإذا رواها علماء كثيرون كانت أًصحّ من الكلمة التي يرويها علم واحد.

لقد كانت المحاولات الأولى لتفسير القرآن الكريم كيفما اتفق دون ترتيب أو تنظيم كانت تُقحم أحيانا داخل النص حتى يشتبه الأصل بتفسيره، لكن ما لبث جُماع اللّغة أن أدركوا أنّ طريقة الجمع عشوائية في تفسير كتاب الله والحديث الشريف؛ فحاولوا أن ينظموا ما جمعوه في رسائل مختلفة الأشكال والأغراض. فالمرحلة الأولى في جمع اللّغة كانت رسائل تدور حول غريب القرآن، وغريب الحديث.

- **معاجم غريب القرآن:** مجموعة مرويات منسوبة إلى عبد الله بن عباس رواه عنه البخاري في صحيحه، وابن جرير الطبري في تفسيره. ويعدّ أول أثر من آثار تفسير غريب القرآن الكريم؛ حيث كان عبد الله بن عباس حبر الأمة وترجمان القرآن؛ يشرح معنى الكلمة الغامضة ويفسّر الآية بأكملها أحيانا، يشرح معنى الكلمة المفردة حين يقتضي السيّاق القرآني ذلك. كما كان يوضّح أسباب النزول وناسخ الآيات ومنسوخها، وكانت الألفاظ مرتبة حسب أماكنها في سور القرآن الكريم. وهناك كتب مؤلفة في غريب القرآن بعد ابن عباس نذكر منها:

- **غريب القرآن في لغات الفرقان:** لأبي الفضل بن فيّاض علي؛ جمع فيه ألفاظ غريب القرآن.

- **المفردات في غريب القرآن:** لراغب الأصبهاني؛ يجمع فيه ما ورد في القرآن من كلمات صعبة ويشرحها مستشهدا بالآيات القرآنية وكذلك الأشعار.

- **تفسير غريب القرآن:** المعروف بقاموس "أوضح التبيان في حل ألفاظ القرآن"؛ وهو عبارة عن ترتيب حسب سور القرآن يجمع تحت كل سورة ألفاظها الصعبة ويشرحها ، ألفه محمد المصري.

- **معجم الكلمات الأثرية في القرآن والمعلقات:** لمؤلفه "فراينكيل سيجسمنديس" ؛ يعنى بالكلمات الأثرية التي درسها وأعادها إلى أصلها مع ذكر الأصل بلفظه.

- **المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم:** عبارة عن جدول أبجدي للكلمات الواردة في القرآن الكريم مع تحديد مكان ورودها، لمؤلفه محمد فؤاد عبد الباقي.

إنّ كتب الغريب كانت من المعاجم المتخصصة التي حاولت الوفاء بغرض تفسير النّص القرآني على نحو ميّسر، وامتدّ هذا النوع من التأليف اللّغوي إلى الحديث النبوي الشريف.

- **معاجم غريب الحديث:** تأخر التأليف في هذا النوع زمنا طويلاً؛ وذلك لأن الرسول صلى الله عليه وسلم كان يخاطب العرب عل اختلاف شعوبهم وقبائلهم بما يفهمونه، لذلك فقد كان أصحابه يعرفون ما يقول نادرا ما كان يغمض عليهم شيء من أقواله فيسألونه، واستمرّ الحال هكذا إلى وفاة النبيّ (ص). ونسب أكثر الباحثين الكتاب الأول في غريب الحديث إلى "أبي عبيدة معمر بن المثنى (ت 210ه). ومن الكتب المؤلفة في غريب الحديث نذكر:

- كتاب **غريب الحديث** لأبي عبيدة
- كتاب **غريب الحديث** للأصمعي
- كتاب **غريب الحديث** للنضر بن شميل
- كتاب **غريب الحديث** لقطرب
- كتاب **غريب الحديث** لابن الأعرابي
- **غريب الحديث** لابن قتيبة
- **النهاية في غريب الحديث** لابن الأثير (محمد الدين أبي السعادات المبارك بن محمد الجزري (ت606ه).

ملخص الدرس:

- هناك أمم سبقت العرب في تأليف المعاجم (الأشوريون، اليونانيون، الصينيون....الخ)
- بدأ التأليف المعجمي عند العرب بعد ظهور الإسلام، عندما واجه الصحابة مشكلة في فهم بعض معاني الألفاظ الواردة في القرآن الكريم
- كانت بواكير المعاجم العربية على شكل رسائل لغوية صغيرة ذات اتجاهات مختلفة، أولها كتب تفسير غريب القرآن ثم تفسير غريب الحديث، وهي النواة الأولى في صناعة المعجم العربي